

الفصل الثاني محاولات فلسفية لتبرير انقطاع النبوة خير التشريعية

هناك محاولتان قام بهما مفكرون ورجال دين مسلمون للخروج بتبرير منطقي لانقطاع مجيء الأنبياء، حتى الأنبياء الذين لا يحملون شريعة جديدة من الله تعالى. وتقوم المحاولة الأولى على موضوع الحاجة إلى مجيء نبي جديد، فيقولون إن مجيء الرسول ﷺ، وهو النبي الكامل الذي جاء من الله تعالى يحمل الشريعة الكاملة، يلغي تماما أية حاجة لمجيء نبي تابع. وبطبيعة الحال.. فإنه يمكن قبول ذلك فيما إذا أمكن فعلا إثبات أن مجيء هذا النبي الكامل بهذه الشريعة الكاملة يضمن تماما عدم وقوع الانحراف في فهم هذه التعاليم الكاملة المتضمنة في كتاب الله المجيد وسنة رسوله، وهذا يظل الناس على طريق الهدى المستقيم، متمسكين بأهداب التقوى والصلاح. ولكن بكل أسف.. إن هذا الأمر لا يمكن إثباته لا عمليا ولا تاريخيا.

والحقيقة إن هذا الرأي لا يؤيده أي دليل ذي معنى أو منطق يقنع العقل، لأن المهمة التي يؤديها الأنبياء لا تنحصر فقط في إحضار كتاب شريعة من الله تعالى. إن النبوة في ذاتها أمر له عديد من الجوانب العظيمة والتأثيرات الهامة. ولا يستطيع أحد أن يزعم أبدا أنه بعد اكتمال الشريعة في الكتاب والسنة.. لم يعد لوجود الرسول ﷺ أية أهمية على الإطلاق، والاحتفاظ بالكتاب وبسنة النبي حامل الشريعة لا يكفي بعد وفاته لأن يكون بديلا للنبوة. ويكفي لتوضيح هذا الأمر ما حدث مع المسلمين بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، حيث ظهر الاضمحلال الذي استمر يؤثر بشكل متزايد على المجتمع الإسلامي،

فقامت خلافات أدت إلى الاقتتال بين المسلمين، وانقسموا إلى فرّق ومذاهب ظلت تتزايد وتتفاقم. والفرّق الشاسع بين أحوال المسلمين الروحية من تقوى وصلاح أثناء وجود الرسول ﷺ بينهم خلال فترة حياته الشريفة، وبين أحوال المسلمين الآن.. أمر لا يحتمل المقارنة. ومع ذلك فإن الشريعة الكاملة لا تزال كما هي محفوظة بأمر الله تعالى، والكتاب لا يزال كما هو لا ريب فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وظل كما هو، كاملا بدون تغيير أو تحريف كما كان قبل الأربعة عشر قرنا الماضية.

أما التبرير الثاني لفكرة الآخرة المطلقة وانقطاع مجيء الأنبياء بكافة أنواعهم فيقوم على نظرية ارتقاء الإنسان ووصوله إلى مرحلة النضوج الفكري. والمناصر الأكبر لهذه النظرية هو العلامة والمفكر والشاعر العظيم محمد إقبال، الذي يعتبره البعض أكبر المفكرين المسلمين في الأزمنة الحديثة. وفكرة النضوج الفكري هذه تقوم على افتراض أن القرآن المجيد قد نزل من الله تعالى حينما وصل الإنسان إلى مرحلة النضوج الفكري، وعلى هذا.. لم يعد الإنسان بحاجة إلى هدي آخر من أي مبعوث آخر، على عكس الأجداد الذين رحلوا في الأزمنة السابقة. وللهولة الأولى تبدو هذه النظرية كأنها فكرة فلسفية جميلة، ولكن بعد إمعان النظر فيها ودراستها بعمق يتبين خوارها وخلوها من أية قيمة. فإن الأساس نفسه الذي تقوم عليه هذه النظرية من أن الإنسان قد وصل إلى مرحلة النضوج الفكري، حتى إنه أصبح قادرا وحده على استنباط الحقائق، وانتهاج المنهج الصحيح السليم للسلوك من تعاليم الدين الكامل، هو أساس يخضع للنقاش والجدل من نواح عدة.

وينبغي ألا ننسى أن الإنسان كان دائما وعند كل منعطف من منعطفات التقدم يعتبر نفسه قد وصل إلى قمة النضوج الفكري، وعند كل مرحلة من مراحل التاريخ.. كان الجيل الذي يعيش تلك المرحلة يعتبر

نفسه أيضا قد بلغ قمة التقدم الإنساني. وكان الناس إذا نظروا من موقعهم الذي وصلوا إليه إلى الأجيال السابقة، كانت تلك الأجيال تبدو لهم أقل نضوجا وأقل تقدما منهم، ومع ذلك فلم يحدث أبدا أن تصرف الإنسان وحده في أي مرحلة من مراحل التاريخ بحكمة تكفي لهداية نفسه. وعلى الدوام كانت ترتفع رؤوس ورؤساء مثل فرعون لتتحدى الهدي الإلهي، وكان المتمردون على الهدي الإلهي يرفضون قبول الأنبياء الذين جاءوا إليهم في أزمانهم مستخدمين نفس المنطق المغلوط الذي يعتمد على نضوجهم الفكري، وكرر الجميع مرارا نفس الادعاء بأنهم قد بلغوا مرحلة من التقدم الفكري يكفل لهم تقرير أمورهم بأنفسهم. غير أن التاريخ يبين أن كل تلك الأجيال كانت على خطأ. وعلى ذلك.. فمن السداجة بمكان الزعم بأن الجيل المعاصر هو الوحيد الذي وصل بالإنسان أخيرا إلى الاكتفاء بقدراته الذاتية لكل متطلبات تقدمه الأخلاقي والروحاني.

كذلك يتضح زيف فكرة النضوج الفكري من خلال وقائع وحقائق التاريخ. فبعد وفاة الأنبياء لطالما كانت تقع الانقسامات، وتتعدد الفرق الدينية التي تتولى تقديم التفسيرات المختلفة والمفاهيم المتباينة للتعاليم التي أتى بها الأنبياء، وكانت هذه ظاهرة عامة لم يخل منها أتباع نبي من الأنبياء على الإطلاق، ولم ينج منها المسلمون أيضا. وهكذا يتضح أن موضوع بلوغ النضوج الفكري المزعوم لا يؤهل الإنسان لاستنباط الفهم الصحيح للصحف المقدسة، وإنما يقتضي الأمر هديا إلهيا.

وإذا كان "النضوج الفكري" للإنسان يعني أنه يستطيع وحده استخلاص الحقائق من دراسته للصحف المقدسة، لكان من المحتم أن ينتج عن ذلك وحدة واتفاق كامل على جميع الأسس في التعاليم الدينية. ولكن للأسف إن ما نراه اليوم عمليا وكواقع فعلي ملموس، يُعد فشلا ذريعا لهذه الفكرة. والمسلمون الذين تشرفوا بتلقيهم من الله تعالى الكتاب الإلهي

الكامل والأخير.. نجد أنهم ليسوا أقل فرقة وانقساماً، فيما يختص بال تفسير، من غيرهم من أتباع الأديان الأخرى. فما جدوى ما يسمى بالنضوج الفكري للإنسان؟ إن تاريخ الأديان يثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأنه إذا بدأ الناس ينقسمون إلى فرق ونحل ومذاهب، فإنهم لا يتخلون أبداً عن هذا الانقسام والتشيع ليعودوا إلى التوحيد نتيجة لمجهود الإنسان وحده. وتطبق نفس هذه الحالة بدون أدنى شك على المسلمين اليوم أيضاً. وبغير أن تتدخل السماء عن طريق المصلح الرباني، فمن المستحيل جمع المسلمين وتوحيدهم مرة أخرى تحت راية واحدة. ولكنهم بكل أسف يرفضون هذا الإجراء السماوي، رغم أنه باب الأمل الوحيد المفتوح أمامهم.

إن وجود ما يزيد عن سبعين فرقة بين المسلمين.. رغم وجود الكتاب المحفوظ والسنة المتواترة والأحاديث الشريفة المحققة.. كلها تقف دليلاً على عدم صحة الفكرة الفلسفية للشاعر إقبال عن نظرية النضوج الفكري للإنسان.

والاختلافات التي تُباعد بين هذه الفرق الإسلامية ليست مجرد اختلافات هامشية، وإنما هي أساسية وعميقة، كما أنها تتزايد وتتأصل بمرور الزمن. وعندما نضيف إلى هذه الاختلافات الفقر الأخلاقي المنتشر في العالم الإسلامي، ومأساة وجودهم وكأنهم جسد ميت فقد الحياة، فإن الأمر يصير مؤسفاً يثير كثير الحزن وشديد الأسى. وإذا كان الأمل الوحيد الذي يمكن أن يبعث فيهم الحياة هو اعتمادهم على نضوجهم الفكري، فلنقل على الدنيا السلام، والأولى بالمرء أن يتوضأ كي يكون على استعداد لحضور صلاة الجنائز وقراءة الفاتحة والترحم على الماضي الذي لن يعود.

يا لها من مأساة مفعجة! لماذا لا يدرك هؤلاء الناضجون فكراً أن كتاباً محفوظاً فقط لا يكفي لتزكية النفوس وتطهير القلوب؟ إذ لو كان

الأمر كذلك لاستطاع المسلمون الحفاظ على مكانتهم المثلى ووحدهم الفكرية، غير أن الواقع العملي بكل أسف يبعد عن هذه المثالية التي كانت تتمتع بها الأمة في بدايتها.. بُعد الشرق عن الغرب، والسماء عن الأرض. إن كل ما يمكن أن يُقال هنا دفاعاً عن الفكرة التي قدمها الدكتور إقبال لإغلاق نافذة النور الإلهي بهذا السُّخْف الذي يسميه النضوج الفكري.. هو أنه لم يخترع تلك الفكرة بنفسه، وإنما كانت سقطته هي أنه اقتبس بغير تفكير عميق نظرية الفيلسوف الألماني المعروف نيتشه. فإن نيتشه هو أول من استخدم فكرة النضوج العقلي في العصر الحديث لينفي وجود أية حاجة لتلقي الهداية من الله تعالى. وفي الواقع.. كان نيتشه يحض الإنسان على أن يفيق من غفوته ويرتقي إلى مستوى الزمن الذي يعيش فيه، وأن يستخدم قدراته الخاصة المتمثلة في حواسه الخمس. وكان التعبير الذي وضعه نيتشه لمن يصل إلى مرحلة النضوج.. حيث يكون قد تمكن من استغلال جميع حواسه بكامل قدراتها.. هو الإنسان المتفوق، أو "السوبرمان". ومثل هذا الإنسان في رأيه ليس في حاجة إلى الله لكي يتلقى منه الهداية، فقد كان يعتبر أن الله مجرد ظن وتخمين، وليس حقاً وقيناً. وكان يرى أن هذه الظنيات قد تولدت من نقص القدرات الفكرية خلال العصور التي لم يكن الإنسان فيها قد نضج بما يكفي لكي يكون سيد نفسه. والآن.. حيث بلغ الإنسان مرحلة النضوج الفكري، كما استخلص نيتشه في كتابه: "هكذا تكلم زراثوسترا"[#] - الذي يُعتبر الوحي الرمزي لفلسفة نيتشه، مشيراً فيه إلى أنه لم تعد هناك من حاجة إلى التمسك بأية ظنيات.

"في زمن ما كان المرء يقول الله.. حينما كان ينظر إلى أديم البحار؛
ولكني علمتك الآن أن تقول: الإنسان المتفوق (السوبرمان).
"إن الإله هو مجرد ظن، ولكني أرغب ألا يتجاوز ظنك إرادتك الخلاقة".

[#] انظر الملاحظة عن زرادشت في الفصل عن الزرادشتية. منه

"هل يمكن لك أن تفكر كإله؟ هذا هو ما يجب أن تعنيه الحقيقة لك: أن يتحول كل شيء إلى ما يمكن أن يتصوره الإنسان بفكره، وما يراه الإنسان، وما يلمسه الإنسان. فعليك أن تفكر من خلال حواسك وما يتعلق بها وما يترتب عليها".^٢

"إن الإله ما هو إلا مجرد ظن، ولكن من الذي يستطيع أن يتخلص من صراع الظن إلا بالموت".^٣

وخلاصة ما أدى إليه كتاب "هكذا تكلم زراثوسترا" هو تمرد نيتشه على الإله الذي يعتبره مجرد ظن، وذلك الإله هو في الواقع.. تصور المسيحية عن الإله. ولكي نفهم لماذا تمرد زراثوسترا على الإله، فلا بد من قراءة الفصل بعنوان: "المتقاعد". ولكن يكفي هنا أن ندرك أن ما تتمخض عنه فلسفة نيتشه هو تحرير الإنسان من أن يكون أسير الهداية التي تأتيه من السماء، فإن نضوجه الفكري هو الذي يكفي لتحقيق هدايته.



نيتشه وإقبال

وهذه بالضبط كانت فلسفة إقبال التي أعلنها لإلغاء الحاجة إلى مجيء نبي، بعد أن وصل نضوج الإنسان الفكري إلى قمة قدراته. وبدلاً من أن يستخدم العلامة إقبال هذه الفلسفة المستعارة والمقتبسة لإنكار الحاجة إلى الهداية الربانية، نراه قد طور فكرة النضوج الفكري بعض الشيء لتناسب أغراضه داخل الإطار الإسلامي. وبالرغم من أنه لا يزال يعترف بالحاجة إلى المعلم الكامل والكتاب الكامل، ومادام

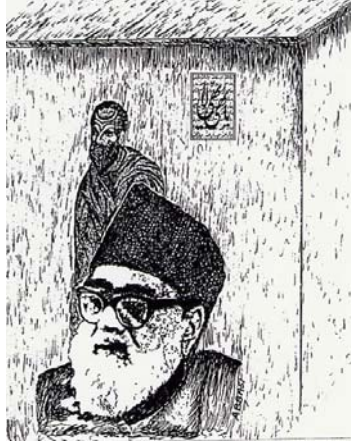
ذلك متوفراً، فهو لا يرى أن تؤرق السماء مضجع الإنسان بتدخلها في شؤون هدايته. ولكن ليس هذا كل ما في الأمر.. فإن عقيدة النضوج

الفكري، بعد التعديل الذي أدخله عليها إقبال، لا تلغي الحاجة إلى النبوة فحسب، وإنما تلغي كلية أيضا أية حاجة لوجود اتصال ما بين الله والإنسان، حتى ولو كان نوعا من الوحي غير وحي الأنبياء. ولا بد أن يكون هذا هو الاستنتاج المعقول الوحيد الذي تُفرزه عقيدته عن النضوج الفكري، فإن فكرة النضوج هذه تقتضي استقلالاً كاملاً للإنسان عن أية هداية سماوية إضافية في أي شكل من الأشكال. فهو قد صار من الكفاءة. يمكن حتى إنه يستطيع أن يقرر لنفسه ما يشاء في ضوء ما مُنح له من هداية. فالإنسان.. كما يقول إقبال.. لم يعد طفلاً تُمسك بإصبعه الصغير يَدُّ نبي لتعينه على أن يخطو بعض الخطوات إلى الأمام. ألم ينضج هذا الإنسان ويصل إلى سن البلوغ الفكري لكي يقرر أمر نفسه بنفسه؟ قد يبدو هذا المنطق معقولاً لدى البعض، غير أن نظرة واحدة إلى التدهور الروحي والانحطاط الأخلاقي الشامل للإنسان اليوم.. تكفي لتبديد هذه الدعوى واعتبارها مجرد خيال ووهم مغلوطة.

ولعل ما ذكرناه حتى الآن فيه الكفاية عن إقبال و دعاويه النظرية، ولنتحوّل الآن إلى الكلام عن المودودي.. وهو أحد العلماء المشهورين بين المسلمين من أهل السُّنة. وهو يؤكد على أن الانقطاع المطلق للنبوة بعد الرسول ﷺ إنما هو نعمة فريدة من الله تعالى على الإنسانية جمعاء. وهو يرى أن انقطاع النبوة هذا يعتبر بركة خاصة للمسلمين.. لأنه يدفع عنهم على الدوام خطر قدوم نبي من الله تعالى ومن ثم عدم قبوله، وبذلك فهم في حصن حماية الله تعالى من أن يكونوا محل لعنة من الله كما لعن الذين من قبلهم، لارتكابهم معصية الكفر بأنبياء الله في زمانهم. ونحن نرى أن وجهة النظر هذه تستحق أن تُعالج بدعابة مضحكة بدلاً من أن تعالج بمناقشة موضوعية، فالمثل الشائع يقول: شر البلية ما يُضحك.

وإذا كان من الممكن قبول فلسفة المودودي هذه، فإن هذا يعني ضمناً أن النبوة نفسها كانت في الواقع لعنة، وإلا لما اعتُبر انقطاعها نعمة.

إن هذا الأسلوب في التفكير يماثل تفكير بولس الذي وصم شريعة التوراة بأنها لعنة، وكان يؤمن بأن المسيح هو المخلص لأنه ألغى هذه الشريعة، فقد كان بولس يرى أنه لو لم تكن هناك قوانين تشريعية يمكن أن تُنتهك، فلن تكون هناك معصية أو ذنوب يمكن أن تُرتكب.



بولس والمودودي

إن فلسفة المودودي الهوائية هذه لم تنبع من أفكار بولس وحده، وإنما تعيد إلى الأذهان دعوى بهاء الله أيضا، فإن ما فعله المسيح بإلغاء شريعة التوراة حسب رأي بولس.. هو نفسه الذي ادّعى بهاء الله أنه فعله بإلغاء شريعة القرآن، وبذلك فقد أعلن نفسه ليكون محررا للإنسانية من ربة القرآن. غير أنه لم يُقلد منهج بولس تقليدا كاملا، فإن بولس لم يدّع لنفسه أبدا أن الله قد تجسد فيه فصار

مظهر الله، بل نسب هذه الألوهية كلية إلى المسيح، فالمسيح بالنسبة له كان في الواقع المحرر الذي أزال الخطأ الفادح الذي ارتكبه "الإله الأب" في حق الإنسان. فإن خلق شريعة إلهية في ذاته أمر يعادل خلق الخطيئة، وعلى ذلك يكون ما حققه يسوع بالفعل هو أنه دمر التربة التي تنمو فيها الخطيئة، وذلك بإلغاء الشريعة الإلهية حسب رأي بولس. ويبدو أنه في نفس الوقت الذي قام فيه يسوع بتحرير الإنسانية، فإنه قام أيضا بتحرير "الإله الأب" من حماقة خلق الخطيئة.

وقد طبق بهاء الله هذه الفلسفة نفسها ولكن بطريقة جزئية، فادّعى بأن الشريعة القرآنية كانت بالغة الصعوبة ومرهقة، وبذلك فقد فقدت قيمتها بالنسبة للإنسان في العصر الحديث. لذا فقد ظن أنه بتحرير الإنسانية من هذا العبء الثقيل المرهق فإنه سوف يطلق الإنسانية من

إسارها. ولكن الأمر لم يكن تماما هكذا.. فقد جعل من نفسه "مُشرعاً" بعد أن ألغى الشريعة السابقة. ولكن عند تحليل النتيجة النهائية نجد أن بهاء الله لم ينجح إلا في ارتكاب الإساءة إلى الله تعالى وإلى نفسه. فالشريعة التي أملاها بهاء الله لتحل محل الشريعة القرآنية، لم تكن أكثر ولا أقل من إهانة وقحة للفكر والمنطق والعقلانية.

وبين هذين الحواريين الحديثين لبولس، أي بهاء الله والمودودي، ضاع كل شيء، ولم يعد يبدو أنه قد بقي شيء من الإسلام. فقد ادّعى بهاء الله أنه تخلص من الشريعة باسم التحرير من العبودية. وأما عن النبوة.. فقد شرع المودودي في القضاء عليها تحت عباءة فلسفة بولس. غير أن كليهما فشل في تحقيق أغراضه، ولم يُصنّف لهما ويعتبرهما من أبطال الفكر إلا أولئك الذين كانوا أمواتا من الوجهة الروحية.

غير أن المودودي لم يتبع منهج بولس تماما، فلم يذهب إلى ما ذهب إليه بولس فيقول إنه كان يتعين على الله إلغاء شريعة القرآن، حتى لا يكون عدم اتباعها سببا في نزول لعنة الله على من لا يتبعها، بل إنه طبق مبدأ بولس فيما يتعلق بالنبوة فقط. فحتى إذا جاء أنبياء لا يحملون من الله تعالى أية شريعة جديدة بعد الرسول ﷺ، فمن المتوقع في رأيه أن تقوم الأغلبية العظمى من المسلمين برفض الإيمان بهؤلاء الأنبياء، كما فعل ذلك الذين من قبلهم، لذلك.. حسب المنطق المودودي.. سوف يظل سيف اللعنة مُصلّتا على رقاب المسلمين. وفي تقدير المودودي بإلغاء مبدأ مجيء الأنبياء كلية بعد الرسول ﷺ، يكون الله تعالى قد أنعم على الإنسانية عامة، وعلى المسلمين خاصة، بنعمة لا مثيل لها.

ولو صح بالفعل انقطاع بعث الأنبياء.. لكي لا يتعرّض من يرفضهم من الناس لُنزول اللعنة عليه.. فإن هذا يعادل تماما القول بأن مبدأ بعث الأنبياء نفسه كان سببا لُنزول اللعنة. وعلى هذا فإن فلسفة بولس الجديد تتطلب من الله تعالى أن يزيل لعنة النبوة كلية ليخلص الناس من اللعنة،

فما أعجبه من خلاص، وما أغربها من نجاة!
ولكن ينبغي أن يكون من المفهوم أن مبدأ المودودي هذا لا بد أن ينطبق على الماضي كما يريد تطبيقه على المستقبل. فلماذا أرسل الله تعالى عيسى عليه السلام قبل الرسول صلى الله عليه وسلم؟ ألم يذكر القرآن المجيد أن اليهود قد لعنوا بسبب كفرهم به وقولهم على مريم بئتنا وإنما ميينا؟ وما الذي حدث للأنبياء السابقين الذين أرسلهم الله إلى العديد من الأمم؟ ألم يكفر الناس بهم وكانوا يستهزئون بهم ويسخرون منهم؟ ألا يكشف هذا عن حالة من العجرفة والغطرسة للسلوك الإنساني المستمر كما يبين ذلك القرآن المجيد:

﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٦ يس: ٣١)

أليس من الغريب حقا أن الله تعالى لم يشأ أن يضع نهاية لهذه اللعنة التي يكتسبها الناس برفضهم الإيمان بالأنبياء؟ وما الذي حدث لليهود خلال تاريخهم الطويل وتعاملهم مع الأنبياء؟ ألم يلعنهم الله تعالى على لسان داود عليه السلام؟ وما الذي حدث لأهل الكتاب بعد موسى وعيسى عليهما السلام؟

ألم يكن هذا السلوك العدواني الدائم والمستمر لتعامل الناس الظالم تجاه الأنبياء كافيا لأن يرى الله تعالى.. حسب رأي المودودي.. أن النبوة كانت سببا لنزول اللعنة أكثر من أن تكون سببا لنزول الرحمة؟ ولو كان الأمر كذلك حقا.. فلماذا أرسل الله نوحا ولوطا وإبراهيم؟ ألم يكن الكفر بهم سببا في نزول اللعنة على أقوامهم؟ وباستثناء القلة النادرة التي آمنت بهم.. ألم يدمرهم الله تعالى ويقض عليهم ويمح وجودهم من على وجه الأرض؟ وبرغم كل هذا فإن هذه الفكرة العجيبة التي خطرت على بال المودودي لم تخطر على بال الله عز وعللا. فهل كان السبب هو أن عقل المودودي هو الذي اخترع هذه الأسطورة ونسبها بسخافتها إلى الله

تعالى؟ إن هذا التخلف العقلي في الاستنتاج هو خليق فقط بالأطفال لا بالرجال العاقلين. لقد ظل الله تعالى يرسل النبي بعد النبي رغم أن الإنسان المتعجرف ظل يكفر بالنبي تلو النبي. وعلى هذا فإن اللعنة التي عمّت أولئك الذين كفروا بالأنبياء لا يمكن أن يكون سببها هو بعث الأنبياء، فإن اللوم يقع على الناس أنفسهم.

ومرة أخرى.. لو أن مبدأ المودودي هذا كان مقبولا في أية مرحلة زمنية، فلا بد أن يكون مقبولا في كل مرحلة زمنية منذ بعث آدم عليه السلام ابتداءً. فخوفا من أن يكفر الناس بآدم، فتحل اللعنة عليهم، كان ينبغي ألا يبعث الله تعالى آدم على الإطلاق. وإذا كان المودودي يرى أن الخوف من أن يكفر الناس بنبي من بين أتباع رسول الله.. يكون أقل منه مكانة وأدنى مقاما.. يعتبر سببا معقولا لانقطاع النبوة كلية، فإن نفس هذا الخوف كان ينبغي أن يكون سببا أقوى وأولى في عدم بعث الرسول الأرفع مكانة والأعظم مقاما عليه السلام. ألم يكن عليه السلام هو أعظم الأنبياء وأفضلهم قاطبة؟ بالطبع هو كذلك.. كما يشهد به العالم الإسلامي بأجمعه. وحيث إنه الأعظم بين الأنبياء، فلا شك أن الكفر به يستنزل أكبر اللعنات وأشدها. فيا حسرة على المودودي.. الذي يبدو أنه قد نسي تماما أن معظم سكان العالم قد كفروا برسول الله عند بعثته، بل إن ثلاثة أرباع العالم اليوم لا يزالون ينكرونه ولا يصدقونه. وعلى أحسن تقدير.. فإن المؤمنين بالنبي عليه السلام اليوم لا يزيدون عن ربع سكان العالم، ولكن.. هل إيمانهم بالنبي عليه السلام يُعتبر إيمانا صادقا صحيحا يجعلهم في عداد المؤمنين حقا؟ إن المودودي نفسه يرى غير ذلك، بل إنه يرى إن من بين المليار مسلم الموجودين اليوم.. هناك ٩٩٩ من كل ألف منهم مدانون من قبل المودودي بأنهم غير مسلمين، إذ يقول المودودي:

"إن في هذا المزيج الضخم مما يسمى بالمسلمين.. هناك ٩٩٩ من بين كل ألف لا يعرفون شيئا مطلقا عن الإسلام. وهم لا يستطيعون أن

يفرقوا بين الصواب والخطأ، ولا يمت سلوكهم الأخلاقي أو الفكري بأية صلة إلى الإسلام. فمن الأب إلى الابن، ومن الجد إلى الحفيد، قد ورثوا الاسم الإسلامي فقط، ولا أكثر من هذا".^٤

ويبدو من وصف المودودي لأوضاع المسلمين عامة وما انتهت إليه الأمور أنه كان ينبغي على الله تعالى ألا يرسل رسولا ولا أن يُنزل كتابا، حتى لا يكون عباده المساكين موضعا للعتة المستمرة، أو محلا لتزول سخطه وغضبه الدائم عليهم.

ومع ذلك فإن المودودي يؤمن بوجود المبرر الكافي لله تعالى في إرسال جميع أنبيائه منذ زمن آدم عليه السلام إلى زمن أفضلهم وأعظمهم عليه السلام. فإذا كان الكفر بأي منهم قد استنزل اللعنة على الكافرين، فما هو الضرر الفادح الذي يحل بالإنسانية إذا أضيف إلى قائمة الأنبياء نبي آخر؟ إن هذا التناقض الواضح في عبارات المودودي وفلسفته يصير أشد قبحا حين يتبين أنه هو نفسه كان يؤمن بعودة المسيح عليه السلام نبيا من الله تعالى!

فإذا بعث الله تعالى نبيا بغير شريعة.. من بين المسلمين أنفسهم.. بدلا من عودة عيسى عليه السلام الذي بعثه الله تعالى في قديم الزمان نبيا إلى بني إسرائيل، فكيف تُغير بعثة النبي الجديد هذه السنة الأزلية في استنزال اللعنة على الكافرين؟ ولماذا تكون بعثة هذا النبي الجديد وحده هي محل الاعتراض خوفا من نزول اللعنة، بينما كان الكفر بأي نبي من بين جميع الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى منذ زمن آدم عليه السلام.. سببا لاستمرار نزول اللعنة على الكافرين؟

المراجع

1. KAUFMANN, W. (1976) *The Portable Nietzsche*. Penguin Books. England, p.197
2. KAUFMANN, W. (1976) *The Portable Nietzsche*. Penguin Books. England, p.198
3. KAUFMANN, W. (1976) *The Portable Nietzsche*. Penguin Books. England, p.370-375
4. MAUDDOODI, SYED ABUL-A'ALA. *Musalmān Aur Maujoodah Siyasi Kashmakash*. 1st ed. Vol.III. Published by Maktabah Jama'at-i-Islāmi, Dār-ul-Islām, Jamālpur, Pathānkot, p.130